السيرة النبوية في الكتابات الإنجليزية
الإسلام والسلم نموذجا
لفضيلة مولانا وحيد الدين خان
مدير المركز الإسلامي بنيودلهي - الهند

الدكتور محمد بوحمدي[1]

ظلت شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرته موضع اهتمام الدارسين، على امتداد العصور، المسيحيين منهم والمسلمين على حد سواء. وتعاظمت وتيرة هذا الاهتمام بعد ترجمة سيرة ابن هشام إلى الانجليزية سنة 1955 بلندن على يد الفريد غيوم[2] Alfred Guillaume تحت عنوان: The life Muhammad a translation of ibn ishag'sirt Rusul allah

وحيث إن المناسبة تقتضي الاقتصار على جهود بعض علماء المسلمين في خدمة السيرة النبوية، الذين يكتبون باللغة الانجليزية، فقد ارتأيت أن أصنفها إلى صنفين اثنين:

1- جهود في مجال الرد على الطاعنين المشككين في نبوة سيدنا محمد عليه السلام، سعيا منهم إلى هدم المصدر الثاني من مصادر الشريعة.

ومن أبرز العلماء الذين عملوا في هذه الواجهة سنين طويلة، أستاذ علم الحديث في جامعة الملك سعود سنة 1973، محمد مصطفى الأعظمي[3]، حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كامبريدج سنة 1967.

ومن أبرز مؤلفاته التي تصدى فيها للرد على افتراءات المستشرقين:

عن أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت[4]، والعنوان الأصلي بالانجليزية:

On shacht's origins of Muhammad juris prudence

---

1 ــ كلية الآداب ظهر المهراز فاس.

2 – Muhammad prophet and statesman p :243 W.Montgomery Watt

وهو أستاذ اللغة العربية و الدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرة ومؤلف الكتابين: Muhammad at Mecca. Muhammad at Medina

3 – درس بالأزهر بمصر، ودار العلوم بموطنه الأصلي الهند، نال جائزة الملك فيصل سنة 1980 على مؤلفاته القيمة وخدماته الجليلة في مجال السيرة النبوية.

4– يجيد اللغة العربية، له مؤلفات أخرى في الدراسات العربية والاسلامية أبرزها هذا الكتاب.

وطبع هذا الكتاب سنة 1985 بجامعة الملك سعود بالرياض، وهو دراسة نقدية تحليلية معمقة ومفصلة لكتاب المستشرق الألماني جوزيف شاخت(1902 ــ 1969):

Origins of Muhammad juris prudence

أصول الفقه المحمدي أو مصادر الشريعة الإسلامية.

ويحظى هذا الكتاب بمكانة خاصة في الأوساط الاستشراقية الغربية عموما، فجيب، على سبيل المثال، يعتبره مرجعا مهما لدراسة الإسلام لا يضاهى[5]، و يقول كولسون إن شاخت كتب بحثا عن الشريعة الإسلامية لا نظير له.

وممن نوهوا به، وتأثروا به، ونهجوا نهجه: روسبون، وكولسون. فيزالد، اندرسون، يوسور...

كما شكل مرجعا مهما لكثير من المفكرين المسلمين المعاصرين الذين عنوا بالسنة النبوية من أمثال: فزلور الرحمان، فايزي وآخرين.... [6]

فالكتاب بمثابة إنجيل المستشرقين، يعتدون به كثيرا، ولا يرضون عنه بديلا، لأنه يشكك في صحة الحديث، ويرى أن السند ليست له قيمة تاريخية، فقد اخترعه المحدثون لتزييف الحقائق، وأن الصورة التي رسمها علماء المسلمين لنبيهم وشريعتهم تخفي من الحقيقة أكثر مما تظهر، وأن نزاهة الكثير من رواه أخبار النبي محمد تثير الريبة والشك، بل إن هذا المستشرق يشكك في أبسط الحقائق التاريخية التي يقر بها الجميع[7].

لذلك، فقد أثار كتابه حفيظة العلماء المسلمين، فتصدوا له بالرد وتتبعوا سقطاته وعوراته، ومن أبرزهم، كما سلف القول: محمد مصطفى الأعظمي في كتابه:

عن أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت .

وينقسم إلى قسمين : القسم الأول و فيه فصلان:

الفصل الأول: الشريعة والإسلام

الفصل الثاني: الشريعة الإسلامية في القرن الأول الهجري.

والقسم الثاني وعنوانه: السنة النبوية والشريعة الإسلامية في ستة فصول: 3. 4. 5. 6. 7. 8.

الفصل الثالث: بعنوان: السنة النبوية معناها ومفهومها، وهو بحث لغوي طريف تتبع فيه المؤلف لفظة السنة واستعمالاتها العامة والخاصة في الشعر الجاهلي، وفي القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي الشريف، وفي الشعر الأموي، وعند الأئمة.

---

5 – On shacht's origins of Muhammadan juris prudence p :1

6 – نفسه: 1

7 – On shacht's origins of Muhammadan juris prudence p :3

وفي الفصول الأخرى من الكتاب يفحص الأعظمي المصادر التي استقى منها شاخت مادته العلمية، ويعرض الأخطاء الجوهرية في منهجيته التي قادته إلى استنتاجات مغلوطة لا وجود لها في النصوص المستشهد بها.

وهكذا فإن كتاب مصطفى الأعظمي يمثل إضافة قيمة إلى مكتبة السنة النبوية من منظور إسلامي.

2- جهود في سياق العمل الدعوي ونشر الفكر الإسلامي، والتعريف بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن أبرز التآليف في هذا الباب التي شدتني إليها شدًا: الإسلام والسلم لفضيلة مولانا وحيد الدين خان[8]، الداعية والمفكر الإسلامي الهندي المتميز، الذي وهب حياته لنشر الإسلام والذود عنه ومخاطبة غير المسلمين بأسلوب علمي راق منذ أكثر من ستين عاما.

هذا الكتاب لم ينسج على منواله ناسج، فهو فرد مطلق عقلا وثقافة و منهجا، إذ إنه ليس كتاب سيرة بالمعنى الدقيق، لا يسرد تفاصيل حياة النبي عليه السلام سردا تاريخيا من مولده إلى تاريخ لحوقه بربه، كما تصنع جل كتب السيرة، بل هو خلاصة تأملات الكاتب في جوانب من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، يستلهم منها دروسا وعبرا وعظات، وينقب في ثناياها عن الأجوبة الشافية للأسئلة الحارقة لعالم ما بعد الحداثة.

يعتبر الكاتب شأن جميع المسلمين، أن السيرة النبوية منهج حياة، وبرنامج عمل، وتطبيق عملي للشريعة الإسلامية، لذلك يعرض عليها بعض أعقد قضايا الإصلاح المعاصر التي يشتد حولها الخلاف، ويجدُّ في البحث عن نظائرها في سيرته عليه السلام علَّه يجد حلولا ومخارج تشفي الغليل، كقضية الامتناع عن تكفير أحد من أهل القبلة... وغيرها من التحديات الكبرى والقضايا الخلافية التي تقض مضاجع المسلمين وتؤرقهم.

إن أكبر خطأ ارتكبه المسلمون في هذا الزمن، في نظر الكاتب، أنهم نسوا كلية، سنة نبيهم وسيرته العملية التي هي منهج حياة، ومن أهم أسس المنهج النبوي[1] التي استمدها المؤلف من سيرته عليه السلام:

---

8 ـــ مدير المركز الإسلامي بنيودلهي، ورئيس تحرير مجلة الرسالة . و لد بالهند سنة 1925،كان من ضمن كبار ضيوف المؤتمر الدولي المنعقد بتركيا حول السيرة النبوية يوم 24-05-2012. يكتب باللغات : الهندية والأردية، والانجليزية. ومن مؤلفاته: عليكم بسنتي، أيديولوجيا السلم، الإسلام كما هو، النبي محمد : الدليل المبسط إلى سيرته، القرآن المعجزة الخالدة. محمد رسول البشرية. نداء القرآن ، الإسلام صوت الفطرة....

(1) Islam and peace. P: 60

أورد الكاتب هذه الأسس تحت عنوان: أهمية دراسة السيرة النبوية والاقتداء بها في حياتنا.

الخيار الثالث: الفصل بين القضيتين ـــ السلم أقوى من الحرب ـــ العمل في حدود الممكن ـــ تغيير مجال العمل ـــ تغيير أسلوب العمل.

إن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا ـــ معاملة الأعداء بالحسنى، الإيمـــان بنقـــاء الفطـــرة الإنسانية ـــ التدرج في الإنجاز..[2]

الخيار الثالث [3]

سيتضح المراد بالخيار الثالث من عرض المثالين المأخوذين من السيرة: الأول يتعلـــق بغـــزوة مؤتة، والثاني بصلح الحديبية، ففي الأيام الأخيرة من حياته صلى الله عليه وسلم وقعت معركة مؤتة بين المسلمين والروم في المنطقة التي تعرف الآن بالأردن، وبعد أيام من القتال الشديد، اتخذ خالد بن الوليد قرارا بالانسحاب من المعركة لعدم تكافؤ الجيشين،فجيش الروم يبلغ تعداده حوالي 200.000 مقاتل، بينما لا يتعدى جيش المسلمين بضعة آلاف.

ولما دنا الجيش من المدينة جعل الناس يحثون عليهم التراب، ويقولون يا فرار، يا فرار، فـــررتم في سبيل الله، فيرد الرسول صلى الله عليه وسلم: ليسوا فرارا، ولكنهم الكرار، إن شاء الله.

إن موقف الغاضبين من الانسحاب إنما يعبر عن قصور في النظر، ومحدودية في الفكر، لأنهم لا يرون في المسألة المعروضة أمامهم إلا خيارين لا ثالث لهما: النصر أو الهزيمة. وهذا دأب الكثير مـــن الناس المصابين بعمى الألوان، فلا يرون إلا الأبيض والأسود. غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم، بما يمتلك من حكمة وبعد نظر، ورجاحة العقل، وينظر بنور الله يرى خيارا آخر لا يرونه، هو الخيار الثالث: ليسوا فرارا، ولكنهم الكرار إن شاء الله، أي نعم، لم ينتصروا، ولكنهم أيضا لم يهزموا.

إن انسحاب جيش المسلمين من المعركة بقيادة خالد بن الوليد ليس اندحارا ولكنه عدول إلى الخيار الثالث المتمثل في إعداد العدة وبناء جيش قوي قادر على منازلة جموع الروم الغفيرة.

ويحدثنا التاريخ أن المسلمين عادوا لقتال الروم بعد ثلاث سنوات بقيادة أســـامة بـــن زيـــد فأحرزوا نصرا مدويا [1].

وحدث مثل هذا الالتباس والتشويش في أذهان المسلمين في السنة السادسة للـــهجرة عنـــدما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع قريش بشروط بدت لهم مجحفة وغير عادلة،

---

(2) أورد الكاتب هذه الأسس بتركيز شديد تحت عنوان: المس النور والنجاح في ضوء السيرة: 73-69: Islam and peace. P

(3) Islam and peace. P:65

(1) Islam and peace. P:66

وهم الذين خرجوا من المدينة عمارا، يسوقون الهدي، ويحدوهم الأمل والشوق لدخول مكة معتمرين طائفين بالبيت العتيق، فإما العمرة والطواف، وإما القتال دون ذلك. ولم يستوعبوا أن ينحاز الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيار ثالث لم يكن في الحسبان وهو الصلح، فدخل عليهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون[1]، لأنهم لم يروا إلا الأبيض والأسود، أم المنطقة الرمادية[2]، ومساحتها كبيرة، فلم يروها. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعقد صلح الحديبية لم يعتبر قريشا عدوا أبديا للإسلام وإلا لم يكن ليمد يده الشريفة إليها غير أنه أيضا لم يصنفها في خانة الأصدقاء المؤيدين لدعوته، بل اعتبرها مناصرا محتملا، قد ينصر الله به الإسلام من حيث لا تدري ولا تقصد، فربما أتى العون والمدد من حيث لا يتوقع.

في صحيح البخاري أن الله ينصر دينه على يد الرجل الفاجر، كما ينصر بالبار. أو كما قال عليه السلام[3].

ولا شك أن هذا الحديث يحررنا من إسار النظرة الثنائية التقليدية التي تصنف الناس إلى فئتين فقط: عدو أو صديق، مع، أو ضد. وهي نظرة ساذجة، وتصنيف سطحي للناس.

إن دراسة طبيعة الإنسان تؤكد أن في أعماق كل عدو صديقا محتملا، لأن العداوة ليست خلقا متأصلا أو فطريا في الإنسان، بل تنشأ العداوة بين الناس كرد فعل على سلوك معين. أو ما يظن أنه إهانة أو تهديد. والدليل على ذلك أنه عندما يكن لنا شخص مشاعر العداء لسبب من الأسباب، ونتصرف تجاهه بود وبإيجابية.

ونقابل مشاعره السلبية بدماثة الخلق ولطف المعشر، فإننا، مع الوقت، نتمكن من إطفاء جمرات الحقد المستكنة في أعماقه، كما أن التعامل الحسن من طرف واحد يمكن أن يوقظ المشاعر الإنسانية النقية الكامنة في نفسه، مصداقا لقوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} [9].

إن صلح الحديبية، من وجهة نظر الكاتب[10]، يقدم للمسلمين نموذجا عمليا باهرا يقتدون به في بناء علاقات إيجابية مع الحضارة الغربية، وأن يكفوا عن اعتبارها عدوا، بل إن بعض المسلمين يزعمون أن الحضارة الغربية هي المسيح الدجال[11] سلوكا وقيما وثقافة ومظهرا، بيد أننا إذا استوعبنا

---

(1) السيرة النبوية: 281. أبو الحسن الندوي (ت 1999)

(2) Islam and peace. P:122

(3) Islam and peace. P:123

لفظة في صحيح البخاري: لينصرن الله هذا الدين على يد الرجل الفاجر. رقم 3062.

9 - سورة فصلت 33.

10 - Isalm and peace p :71

11 - Isalm and peace p :166

دروس صلح الحديبية جيدا سنحرر أنفسنا من هذه النظرة الضيقة، وسنجد أن الحضارة الغربية ليست صديقا ولا عدوا، ولكنها في ضوء الحديث النبوي السابق: "لينصرن الله هذا الدين بالرجل الفاجر" ربما كانت عونا محتملا للإسلام لينتشر ويمتد إلى كل بقاع المعمور.

إن حديث الدجال الذي يظهر في آخر الزمان حديث صحيح[12] بلا شك، غير أنه لا ينطبق على الحضارة الغربية. ولعل الحديث الذي يمكن أن ينطبق عليها، الحديث الذي يقول ما معناه: "لا تقوم الساعة حتى يدخل هذا الدين إلى كل بيت، وإلى كل كوخ. أكان يمكن أن يصل هذا الدين إلى جميع مناحي الأرض لولا ما وفرته الحضارة الغربية من تكنولوجيا الاتصال والتواصل بالصوت والصورة؟ أكان يمكن للدعاة أن يمارسوا في الغرب مهمة التبليغ والدعوة لولا تقديس الحرية الدينية[13]، واعتبار حرية المعتقد حقا مقدسا كحق الحياة، لا يجوز المساس به، وأمرا شخصيا لا دخل للدولة فيه؟ أكان يمكن أن يبني المسلمون المساجد والمراكز الإسلامية في الغرب لولا اعتداده بالحرية الدينية.

ثم إن الدعوة إلى الله تتطلب تكاليف مادية باهظة وثروات لا تنضب، والفضل في اكتشاف ثروات الأمة الإسلامية كالبترول يعود إلى الحضارة الغربية.

إن الآلات الحديثة التي صنعتها الحضارة الغربية كالسيارات والقطارات، والطائرات، والآلات الصناعية الضخمة هي التي جعلت البترول سلعة ثمينة تدر مداخيل هامة على الأمة الإسلامية، تمكنها من الإنفاق بسخاء على أنشطة الدعوة إلى الله ونشر الإسلام.

ولأول مرة في تاريخ البشرية توضع الكتب المقدسة موضع النقد ليتبين زيفها ما عدا القرآن الكريم، فقد تبين لمن يحتاج إلى بيان أنه الكتاب المنزل من عند الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والفضل يرجع إلى إنجازات الحضارة الغربية التي كشفت أسرار الطبيعة والخلق، فالشكر والثناء لعلماء الغرب الذين أكدوا الإعجاز العلمي للقرآن الكريم باكتشافاتهم الباهرة، ومعارفهم العلمية المتدفقة.

لذا لا يصح وصف الحضارة الغربية بأنها المسيح الدجال، ومن التبسيط المخل القول إنها عدو أو صديق.

إنها تخدم الإسلام والمسلمين خدمات جليلة كما خدمت قريش الإسلام دون قصد إثر معاهدة صلح الحديبية. وهكذا، فإن الدروس المستخلصة من صلح الحديبية تفيد في بناء جسور الثقة مع الغرب، وفي إقامة علاقات إيجابية تفيد الإسلام والمسلمين، لا باعتباره عدوا أو صديقا ولكن باعتباره شريكا ومناصرا محتملا.

---

12 - Isalm and peace p :71

13 - Islam and peace p:166

2- السلم أقوى وأجدى وأفيد من الحرب[14]:

من خلال تأمل السيرة النبوية يتبين أن السلم أفضل السبل التي يعتمدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لفض النزاعات، ولا يحيد عنه إلى الحرب إلا حين يستنفد كل الوسائل السلمية الممكنة، فدين الإسلام دين سلم ورحمة، والله عز وجل لا يحب الفساد الذي يهلك الحرث والنسل قال تعالى: {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد}[15].

كل الإنجازات الباهرة التي تحققت في المراحل الأولى من البعثة النبوية إنما تحققت بواسطة الدعوة التي هي جهاد بالقرآن، كما قال تعالى: {وجاهدهم به جهادا كبيرا}[16].

ومرجع الضمير في قوله: وجاهدهم، القرآن الكريم، وليس القرآن سيفا أو بندقية، ولكنه عقيدة وشريعة[17]. فالمراد بالجهاد في ضوء هذه الآية غزو العقول والقلوب، وغرس الإيمان والتقوى في النفوس بالموعظة الحسنة، أي إن الجهاد هنا مرادف للعمل الدعوي السلمي، بينما القتال يعني الصراع والمواجهة في ساحة الحرب.

إن القوة الحقيقية للإسلام تكمن في الجهاد بالمعنى السلمي أي الدعوة، فمن خلالها يحقق الإسلام انتشارا واسعا سلسا في كل مكان، ويتعجب الكثير من المستشرقين من قدرة الإسلام على التغلغل في النفوس، بشكل لا نظير له، واستقطاب أتباع جدد كل يوم، ويقولون: إن دين المسلمين غزا بلدانا كثيرة عجزت جيوشهم عن الوصول إليها[18].

إن الوسائل المتوفرة اليوم للدعوة إلى الله وإعلاء كلمته بالحسنى غير مسبوقة، ويتعين على المسلمين أن يستغلوها أحسن استغلال، وأن يتذكروا أن نقطة بداية مسيرة الإسلام هي: {اقرأ}[19]، وليس "حارب"؛ لأن الحروب تنشأ أولا في العقول.

لقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة من العمل الدعوي السلمي بمكة، رغم الظروف القاسية التي تدفع دفعا إلى الصدام والمواجهة، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يتحاشى العنف دوماً، ويجنح إلى السلم في قوته وفي ضعفه، كان هذا ديدنه وخلقه على امتداد ثلاث وعشرين سنة. وما أروع قوله الشهير، يخاطب كفار مكة بعد الفتح: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فلله ما أروعها من قولة ومن أمثولة، إنها أرق تعبير وأنبل إشارة لرجال على حافة القبر.

---

14 - Islam and peace p:123

15 - البقرة: 103.

16 - الفرقان: 52.

17 - Islam and peace p:171

18 - Islam and peace p:175

19 - إشارة إلى قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} سورة العلق: 1.

صحيح أن كتب السيرة تذكر أن عدد غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم حوالي ثمانين غزوة، مما يعطي انطباعا بأنه عليه السلام، يشن حوالي أربع غزوات كل عام تقريبا، لكن هذا الانطباع غير صحيح وغير دقيق. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يشن خلال حياته إلا ثلاث غزوات: بدر، وأحد، وحنين. ولا يدوم القتال إلا نصف يوم، من الظهيرة إلى غروب الشمس. لذا، يمكن القول إن المدة التي قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاتلا لا تزيد عن يوم ونصف يوم، وأما الغزوات الأخرى فقد خاضها عليه السلام دفاعا عن النفس. فغزوة الأحزاب مثلا، تدعى غزوة، في حين أن القبائل العربية المتحالفة، والبالغ عددها حوالي 12000 مقاتل هي الغازية، إذ وصلت إلى حدود المدينة لقتال المسلمين في عقر دارهم، فأشير على الرسول صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، ليحول بينهم وبين ما يشتهون، وقل مثل ذلك في باقي الغزوات.

في كتاب الله عز وجل 6666 آية، لا يحض على القتال منها إلا أربعون آية دفاعا عن العقيدة وعن النفس والعرض، أي أقل من واحد بالمائة (% 0,6)، ولا يعني هذا أن شنّ الحرب في الإسلام أمر مشين على الإطلاق، بل يؤذن للمسلمين بالقتال بشروط معروفة.

إن الخيار السلمي هو منهج[20] رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك اتخذ قراراً تاريخيا حين ضاقت به مكة وآذاه أهلها، تمثل في الهجرة إلى المدينة. والهجرة بطبيعتها مثال صارخ على الجنوح إلى السلم.

هذه الاستراتيجية السلمية مكنته عليه السلام، وحوالي 200 من أصحابه أن يؤسس نواة صلبة للدولة الإسلامية في المدينة، ولو أنه صلى الله عليه وسلم اختار المواجهة مع قريش بدلا من الهجرة لأقبرت الدعوة في مهدها، وتغير مجرى التاريخ.

ولنعد ثانية إلى معاهدة السلام المعروفة بصلح الحديبية، ولا نمل من العودة إليها باعتبارها محطة مضيئة في تاريخ الإسلام، جديرة بالاستلهام، ولنتساءل: لماذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع شروط الطرف الآخر، وهي شروط مهينة ومذلة في نظر المسلمين يومئذ؟ ما السر في تقديم ذلك الكم الهائل من التنازلات المؤلمة؟

إنها، ببساطة، ثمن السلم. وثمن السلم باهض جدا لأنه مصدر قوة، مرادف للحياة. نفحة ربانية وهبة من الله للإنسان، السلم قيمة نادرة، عزيزة المنال، ونتيجة تخطيط ورؤية مستقبلية واضحة. السلم مطلوب لذاته، وكل شيء يجيء بعده، وليس معه. وأما الحرب فهي مرادفة للموت والخراب، ردّ فعل عدواني منفلت.

20- islam and peace. P : 84

إن الإنسان العنيف يتصرف أولا ثم يفكر، لكن المسالم يفكر أولا، ثم يتصرف ثانيا، كل شيء له ثمن، فما ثمن السلم؟

إنه الصبر والاحتمال وضبط النفس[21] إننا في عالم يموج بالاختلافات ولا يمكن القضاء عليها واستئصالها، والأسلوب الأمثل للتعامل معها، أن نُقرّ بوجودها، ونوطن أنفسنا على احتمالها، وحينئذ يتحقق التعايش السلمي، وهذا بالضبط ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطط له في معاهدة صلح الحديبية.

حيث توجد القدرة على الاحتمال وضبط النفس والصبر يوجد السلم.

هذه قاعدة عامة على مستوى الأفراد والجماعات، على مستوى الأسرة، والشعوب والدول.

إذا أردنا أن نشيّد عالما خاليا من الحروب فعلينا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على ثقافة الصبر، ونعمل على نشر ثقافة السلم مع النفس، ومع البيئة والمحيط، ومع العالم، السلم وحده الذي ينسجم والفطرة والسواء الإنساني، وثقافة السلم ليست مرادفا لثقافة الاستسلام.

إن تبني الخيار السلمي في صلح الحديبية خياراً استراتيجيا قاد إلى تصفية الأجواء، وخلق مناخا ملائما لنشر الدين الجديد على نطاق واسع، وهيأ الظروف الملائمة لتحقيق العدل والإنصاف الغائب في بنود المعاهدة، فالسلم مطلوب لذاته، وكل شيء يجيء بعده، وليس معه.

صحيح أن السلم المجرد من العدل ليس بسلم، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط سلما عادلا لربما أفضت الأمور إلى طريق مسدود، وتعذر تحقيق السلم. وعلى المسلمين في هذا العصر أن يعوا جيداً هذا الدرس البليغ، ويفهموا أن السلم لا يحقق العدل بشكل أوتوماتيكي، لكنه يهيئ الأجواء الملائكة لتحقيقه. هذه إحدى التحديات الكبرى التي تواجه المسلمين في عالم اليوم، فالسلم لا يضمن لهم العدل والإنصاف، مما يسبب لهم ألما وكربا عظيما، ويدفعهم إلى ركوب موجة العنف، وإهمال النضال السلمي الذي يؤدي في النهاية إلى تحقيق العدل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- الفصل بين القضيتين:

من أعقد القضايا التي تواجه المسلمين في هذا العصر قضية القدس، المدينة التاريخية الموغلة في القدم، ذات الرمزية الدينية، والإرث الحضاري والمشترك بين أتباع الديانات السماوية الثلاث. يخصص لها الكاتب حوالي 20 صفحة من كتابه[22]، يناقش وضعيتها البالغة التعقيد، في ضوء السيرة النبوية من منطلق الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم والتأسي به عقيدة، وشريعة، وأخلاقا، وسلوكا أي في شؤون الحياة العامة.

[21]- islam and peace. P : 60

[22]- islam and peace. P : 76-95

وأول إشارة غير مباشرة إلى مدينة القدس وردت في القرآن الكريم في سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾[23].

كما ورد ذكرها في الحديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى) [24].

وفي حديث آخر أن الصلاة في هذه المساجد الثلاثة تفضل الصلاة في غيرها من المساجد بدرجات، ما بين 500 ضعف إلى 100.000 ضعف.

ونظرا لهذه المنزلة الروحية والدينية التي للمسجد الأقصى في قلوب المسلمين، فإنه لا يوجد مسلم على وجه الأرض إلا ويحلم بالصلاة حيث صلى نبينا محمد والأنبياء قبله أي في المسجد الأقصى.

فكما تتاح لهم الفرصة للمثول بين يدي الله في المسجد الحرام، والمسجد النبوي، يودون لو تتحقق هذه الأمنية أيضا بالنسبة للمجسد الأقصى. ولكن وضعية القدس وضعية بالغة التعقيد، يختلط فيها السياسي بالديني، والجهوي والإقليمي بالدولي، مما يحول دون تحقيق هذه الأمنية بيسر وسهولة.

وإذا ما ربطنا الصلاة في المسجد الأقصى باسترجاع القدس، إلى حظيرة الإسلام، وبسط سيطرة المسلمين عليها، فذلك يعني أن ننتظر طويلا حتى زوال الاحتلال الصهيوني.

إن الاحتلال الصهيوني إلى زوال، طال الأمد أم قصر، هذا أمر بدهي، لأن القرآن يعلمنا أن الأيام دول، قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[25] .

فما أكثر الدول التي تعاقبت على حكم مدينة القدس، وما أكثر الغزاة والطامعين الذين مروا من تلك البقعة المباركة، كل الأشياء تأتي لتمضي. سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولكن السؤال الممضّ: متى؟ سيموت عشرات الملايين من المسلمين، ويدفن معهم توْقهم الروحي إلى تلك البقعة المباركة، ويتراخى الزمن قبل عودة القدس إلى كنف الإسلام والمسلمين، فما الحل؟

لربما أسعفتنا السيرة النبوية الشريفة بإيجاد حل وتسوية لهذه المعضلة، فلنتأمل هذه المواقف العملية الثلاثة من سيرته صلى الله عليه وسلم، التي يفصل فيها بين القضيتين[26]:

23- سورة الإسراء: 1.

24- ورد في الكتب الستة الصحاح مع اختلافات يسيرة في اللفظ وفي صحيح مسلم: ومسجد إيلياء، أي المسجد الأقصى وإيلياء هي بيت المقدس.

25- آل عمران: 140.

26- islam and peace. P : 79

1- أُسْرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تسليةً وجبراً لخاطره، وتعويضا عما لقيه من الذلة والهوان، والجفاء والنكران.

وفي هذا الوقت كانت مدينة القدس خاضعة للنفوذ الفارسي[(27)] أي لحكم غير إسلامي، فقد غزاها القائد الفارسي خسروبارفينر سنة 614م وطرد الروم الذين استولوا عليها منذ 63 قبل الميلاد، وظلت السيطرة للفرس حتى سنة 629م، عندما استعادها الروم من جديد، بقيادة الإمبراطور هرقل.

ومعنى هذا أن النبي محمدا عليه السلام دخل إلى مدينة القدس قبل الهجرة في رحلة الإسـراء والمعراج، وصلى في المسجد الأقصى ، وصلى خلفه الأنبياء إيذانا بعموم رسالته، صلى في المسـجد الأقصى، والقدس تحت حكم غير إسلامي هو الحكم الفارسي، وتأتّى له ذلك، لأنه عليه السـلام لم يخلط بين العبادة وبين السلطة السياسية بل فصل بين القضيتين.

2 ـــ هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة في يوليوز سنة622م. وخلال سنة ونصف من الإقامة بالمدينة المنورة كانت القبلة إلى بيت المقدس. وفي بداية سنة 624م، تحولـت إلى الكعبة المشرفة، وكانت الكعبة، يومئذ، مركزا للشرك والوثنية، تعج بالأصنام، إذ يوجد حولهـا وفوقها ما لا يقل عن 360 صنما[28] ، واستمر هذا الوضع مدة ست سنوات حتى عام الفتح سـنة 630م. فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين استتب له الأمر، وطاف حول الكعبة، وفي يده قوس، وحول الكعبة وعليها ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}[29]. والأصنام تتساقط على وجوهها، ورأى في الكعبة الـصور والتماثيل فكسرها[30].

هذه الواقعة ترسخ مبدأ مهما في الإسلام يمكن أن نصطلح عليه، كما سلف القول، بالفـصل بين القضيتين، فالنبي عليه السلام فصل بين الكعبة التي ترمز إلى التوحيد، وبين الأصنام التي حولهـا وعليها، رمز الشرك والوثنية، وتحمل وجودها، وصبر عليها، حتى جاء الحق وزهق الباطل.

3 ـــ في السنة السادسة للهجرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة رأى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه ففرحوا فرحا عظيما، وتهيأوا للخروج، وخرج رسـول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة معتمرا، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة، ليعلم الناس أنه إنمـا خرج زائرا للبيت معظما له[31]. فلو كان أداء العمرة مشروطا بسيطرة المسلمين على مكة، ولو كان

27- islam and peace. P 80

28 ـ Islam and peace. P: 79.

29 ـــ الإسراء: 81.

30 ـــ زاد المعاد: 1/ 424

31 ـــ زاد المعاد: 1/ 1380، وابن هشام: 2/308.

الطواف حول البيت العتيق رهينا بزوال سلطة الوثنية عليها، ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوق الهدي، ويحرم بالعمرة، ويتوجه إلى الحديبية.

وهكذا يمكن القول إن الحل العملي لمعضلة القدس يكمن، في ضوء السيرة النبوية، في الفصل بين القضيتين[32]، كما رأينا من خلال المواقف العملية اقتبسناها من سيرته العطرة عليه السلام. ليست هذه دعوة إلى فصل الدين عن السياسة، لأن هذا الفصل غير ممكن وغير وارد في الإسلام، فالسياسة هي إدارة شؤون المجتمع من سياسة واقتصاد وإعلام وتربية وغيرها من مجالات الحياة العامة..

4ـــ العمل في حدود الممكن[33]:

من أسس المنهج النبوي العمل في حدود الممكن، فعند بعثته صلى الله عليه وسلم، كانت الجزيرة العربية عرضة للتدخلات الأجنبية من قبل القوى العظمى في ذلك الوقت: الفرس والروم . كما كانت تعج بالمنكرات والفواحش، ما ظهر منها وما بطن. ورغم ذلك، فإن أول أمر إلهي تلقاه من ربه، لم يكن أمرا بتطهير الكعبة من الأصنام، أو شن حرب على الفرس والروم لوضع حد لانتهاكاتهم، أو محاكمة المجرمين والقتلة والمرابين وفق أحكام الشريعة، بل كان أول أمر إلهي نزل به الوحي يتعلق بالقراءة.

وتلك إشارة قوية إلى أن البداية، وكل بداية صعبة، يجب أن تبقى في حدود الممكن والمستطاع.

إن تطهير الكعبة من الأصنام، ووضع حد للتدخلات الأجنبية، ومحاكمة الخارجين عن القانون مطالب ملحة ومستعجلة، ولكنها، من الناحية العملية، مستحيلة. لذا عمل صلى الله عليه وسلم، بوحي من ربه، على النأي بنفسه عن المستحيل لصالح الممكن، وهو يزاول العمل الدعوي.

من الأقوال المأثورة في اللغة الإنجليزية: السياسة فن الممكن. فعلى المسلم، أيضا، أن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويبدأ في كل عمل، أو مخطط، أو مشروع ، من الممكن والمستطاع ضمانا للنجاح.

هذه وغيرها مما لم يفصل فيها القول من أسس النجاح[34]، استمدها الكاتب من سيرة المصطفى عليه السلام، معززة بنماذج ومواقف عملية.

ليس القصد الإحاطة، بل التمثيل. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن الكاتب يكتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم بمحبة وتقدير شديدين، ويدعو المسلمين إلى العودة إلى سيرته عليه

---

[32] ـــ ربما يشير ه\ا الحل الذي يقترحه المؤلف ردود أفعال غاضبة، لكن القصد من إيراده تعميق النقاش حوله، وهل القياس سليم ومقبول.صاحب البحثـ

[33] ـ Islam and peace. P: 60.

[34] ـ Islam and peace. P: 69.

السلام وقراءتها قراءة معاصرة، تمكنهم من الانخراط في اللحظة الراهنة، والإسهام في بناء الحضارة الإنسانية، كما يدعو بإلحاح شديد، إلى الاعتصام بالمنهج النبوي، إذ هو طوق نجاتهم في عالم ملبد بالغيوم.